المبحث الأول

دور الإشارات واللمحات

من أقدم الكتب التي أُلّفت عن القرآن الكريم، التي كانت تتحدث عن معاني القرآن هما مجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للفرّاء، وهذين الكتابين كتبا في القرن الثاني للهجرة على الترجيح، لأنَّ مؤلفيهما توفيا في أول القرن الثالث، ونجد هذين الكتابين قد تحدثا عن أسلوب القرآن ونظمه وبخاصة كتاب مجاز القرآن ففيه حديث عن التشبيه، والكناية والإشارة، وإلى غير ذلك مما كان الأساس الذي يبني عليه العلماء اللاحقون كثيراً من قضايا الإعجاز، ونجد إنَّ قضية الإعجاز لم تقرر تقريراً مباشراً، في هذين الكتابين، بل كان فيهما إشارات ولمحات لم تذكر فيها كلمة الإعجاز، فجاء القرن الثالث الهجري فظهرت فيه لفظة الإعجاز، وكثيراً من الإشارات واللمحات في قضايا الإعجاز، وكانت هذه الإشارات عند النظّام المعتزلي، وتلميذه الجاحظ، وهم من أشهر أئمة الاعتزال(١).

وفيما يلي شرح لكل من هذين الإمامين:

المطلب الأول: النَّظّام (ت: ٢٣١هـ)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سَيَّار بن هانئ النظام البصري. وهو ممن حملوا لواء الاعتزال بعد –واصل بن عطاء– حيث يدلي برأيه بعد أن قرأ في كتب الفلاسفة واتصل بالثقافات الفارسية والهندية واليونانية، وكان يميل في علمه إلى التجربة والقياس، ولا يقبل التسليم بالمنقول والمأثور. وسمي النظّام؛ لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة. وتتلمذ للعلاف في الاعتزال ثم انفرد

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ص٣٧-٣٨.

عنه وكوّن له مذهباً خاصاً، وعاشره في بغداد حيناً ومات وهو شاب في نحو السادسة والثلاثين من عمره سنة ٢٣١هـ، وكان أستاذ الجاحظ(١).

وقد ترجم الإمام أبو منصور البغدادي في كتابه (الفرق بين الفِرَق) فقال: «عاش النظّام في شبابه قوماً من الثنوية وقوماً من السُّهَنية القائلين بتكافؤ الأدلة، وخالط بعد كبره قوماً من ملاحدة الفلاسفة، ثم دوّن مذاهب الثنوية وبدع الفلاسفة، وأُعجب بقول البراهمية بإبطال النبوات، وأنكر إعجاز القرآن في نظمه، وأنكر ما رُوي في معجزات نبينا محمد ﷺ من انشقاق القمر وتسبيح الحصى في يده... الخ، ليتوصل بإنكار معجزات نبينا محمد ﷺ إلى إنكار نبوته، ثم استثقل أحكام شريعة الإسلام في فروعها، وأنكر حجية الإجماع، وحجية القياس في الفروع الشرعية، وأنكر الحجة من الأخبار التي لا توجب العلم الضروري، وطعن في فتاوى أعلام الصحابة ﭫ، وجميع فرق الأمة من فريقي الرأي والحديث»(٢).

ونجد أنَّ النظّام قد تحدّث عن القرآن، من حيث هو دليل على صدق النبي ﷺ، ولكنه يدلّ على صدق النبوة من حيث أخبار الغيب التي تضمنها، لا من حيث نظمه وأسلوبه، وهذا ما جعل العلماء يردون عليه فيما بعد(٣).

وكان رأيه أيضاً: «أنَّ الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنَّ الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم»(٤) وهذا الذي ذهب إليه النظّام هو

---

(١) ينظر: النقد الأدبي: ٢١/١، ومباحث في إعجاز القرآن: ص٥٩.

(٢) الفرق بين الفرق: ص١٣١-١٣٢.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ص٣٨.

(٤) مقالات الإسلاميين: ٢٧١/١، وينظر: معترك الأقران: ص٧٠.

ما عرف بمذهب الصِرفية[1] ومعناها أنَّ الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن، وإن كان ذلك مقدوراً لهم، لأنَّهم كانوا بلغاء بطبيعتهم، فصحاء بسليقتهم، والله ﷻ قد أعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورةٍ من مثله، لأنَّه سبحانه قد صرفهم عن ذلك وأمسك بهم أن يقوموا له، ولو قاموا له وقالوا لكان في وسعهم أن يقولوا مثل قوله؛ لأنَّه من جنس الكلام الذي جرى على ألسنتهم.

ويقول الشهرستاني عن زعم النظّام: «قول النظّام في إعجاز القرآن أنّه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورةٍ من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً»[2].

ولهذا نجد إنَّ ما ذهب إليه النظّام ينحصر في اتجاهين هما:

١- بأنَّ إعجاز القرآن كان لما فيه من إخبار عن الغيب، وهو ما لم يقدر عليه البشر أن يأتوا بمثله.

٢- أنَّ الإعجاز كان أيضاً بهذه الصرفة التي أحدثها الله في الناس، حتى إنَّهم عجزوا كذلك عن الإتيان بمثل هذا القرآن[3].

ونجد إنَّ الفرقة النظامية التي تنسب إلى النظّام قد تبنّوا آراء شاذة في العقائد منها: أنَّ الله لا يقدر أن يفعل بعباده في الدنيا ما لا صلاح فيه، ولا أن يزيد وينقص من عقاب وثواب، وكونه مريداً لفعله كونه خالقاً ولفعل

---

(١) الصرفة (بالفتح) بمعنى أن يصرف الله عبده عن أمر من الأمور.

(٢) الملل والنحل: ص٨٢.

(٣) ينظر: النقد الأدبي: ١/٢٢.

العبد كونه أمر به، والإنسان هو الروح والبدن، والأجسام لا تبقى، والجسم مؤلف من الأعراض، والعلم والجهل المركّب مثلان، والإيمان والكفر كذلك. وأوجبوا النص على الإمام، وثبوته لعليّ لكن عمر كتمه[1].

ويلاحظ بعض الكاتبين المحدثين مُحاولاً أن يعتذر عن النظّام، مفسراً الصرفة بغير التفسير الذي اشتهر عند العلماء، فهو يرى أن الصرفة التي قال بها النظّام لا تعني قدرة العرب على الإتيان بالقرآن، وإنَّما تعني انصرافهم عن ذلك حينما نظروا في القرآن، ونظروا في أنفسهم، فوجدوا أنَّهم لا يمكنهم معارضته فانصرفوا عن ذلك، فهو انصراف لا صرفة[2] ومع تقديرنا لهذا التحليل، إلا أننا لا نوافقه عليه، ذلك لأن الجاحظ نفسه، وهو من تلاميذ النظّام قد ردّ عليه في كتابه نظم القرآن، والجاحظ أقدر على فهم أستاذه ممن جاءوا بعده وهو أقرب زماناً ومكاناً مما قالوا وافهم بمراد ما قاله غيره ونحن معهُ في رأيه هذا.

ومهما يكن من أمر فلقد كان للنظّام كلمات في الإعجاز، بقطع النظر عن الوجه المعجز للكتاب الكريم.

١- الجاحظ (ت: **٢٥٠هـ**):

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة.

كان الجاحظ يرى أن إعجاز القرآن إنما هو في نظمه وتأليفه لذلك كان أول من أفرد الإعجاز القرآني بمؤلف مستقل، وهو كتاب (نظم القرآن) أظهر

---

(١) ينظر: لوامع الأنوار: ١/٧٨.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: ٧١.

فيه رأيه في بيان القرآن بشكل يوضّح الحجة في إعجازه، وهذا الكتاب وإن لم يعثر له على أثر، إلا أننا عرفناه من خلال مؤلفات أخرى للجاحظ مثل كتابي «الحيوان والبيان والتبيين» ولكن يمكن من خلال قراءة كتبه ورسائله استخلاص رأيه في الإعجاز[1]، فمثلاً يذكر ابن الخياط كتاب نظم القرآن فيقول: «ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوات وكتابه في نظم القرآن علم أنَّ له في الإسلام غناء عظيماً، لم يكن ﷻ ليضيعه عليه، ولا يعرف في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنَّه حجَّة لمحمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ»[2] وفي رسالة (حجج النبوة) يقول: «فكتبت له كتاباً أجهدت فيه نفسي، وبلغت فيه أقصى ما يمكن لمثلي في الاحتجاج للقرآن والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة... إلى أن قال: ولا لأصحاب النظّام ولمن نجم بعد النظّام ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنَّه بتنزيل وليس ببرهان ولا دلالة»[3] ولهذا نجد أنَّ في كتابه (حجج النبوّة) فقد صدّره بمقدمة طويلة بيّن فيها مراده من كتابه، وهو جمع حجج الرسول ﷺ وهي المعجزات التي جرت على يديه ﷺ، في مكان واحد حتى تكون أدعى للحفظ والتفهّم، وأهدى لمن عَمِيَ عن الطريق القويم[4] ثم ذكر -بعد تشعب كثير واستطراد-[5] كيفية مجيء أخبار معجزات رسولنا ﷺ وغيره من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأنَّها

(١) ينظر: النقد الأدبي: ١/٢٥، ونظرات في الإعجاز: ص٨٢.

(٢) أمراء البيان: ص٤٣٩ نقلاً عن الانتصار.

(٣) صحيح النبوة: ص١٤٨.

(٤) مجموع الرسائل: ٣/٢٣٤-٢٣٦.

(٥) المصدر السابق: ٣/٢٣٦-٢٦٦.

خرجت مخرج التواتر، وأنَّها قد نُقلت لنا النقل الذي لا يخالجه شك. ثم ذكر بعض الدلائل على نبوته ﷺ[1] وانتهى إلى معجزة النبي العظمى، وهي القرآن، فبيّن أن العرب كانوا أفصح الناس إلا أنَّهم لم يستطيعوا أن يعارضوا شيئاً من كلام الله تبارك وتعالى مع إنّه تحداهم ودعاهم إلى هذا مُدداً متطاولة[2] فلذلك نجد إنَّ في كتابه نظم القرآن قد تحدّث فيه عن مفردات القرآن وبعض أساليب البيان التي اصطلح عليها فيما بعد بعلم البلاغة، وهذا الكتاب قد حرمنا منه ولكن كل ما وصلنا منه شذرات وبعض عبارات ذكرها هو في كتبه المتفرقة.

وأما في كتابيه (البيان والتبيين) وكتاب (الحيوان) فقد تحدّث فيها عن بلاغة القرآن ونظمه[3]، وكان من أهم ما التفت إليه الجاحظ هو براعة النظم في القرآن حيث إنَّ التنزيل قد أولى اللفظ عناية خاصة فاختاره بدقة ليدل على المعاني بدقة، وقد يشترك لفظان في المعنى، ولكن أحدهما أحق من الآخر في الدلالة عليه، كما أن النظم القرآني له براعته في تنزيل اللفظ منزلته في الموضوع الذي أُريد له، كما يمتاز بروعته في الاختبار ومراعاة الفروق بين الألفاظ، فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالاً على معنى واحد، وإنَّما للدلالة على معانٍ مختلفة وبقدر الدقة في إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن في نظمه البالغ حد الإعجاز[4].

ونجد إنَّ مما أثار اهتمام الجاحظ... أنَّ القرآن قد يستعمل لفظاً بعينه، فيستغنى عن ألفاظ ويدل على معانٍ كثيرة وأسماء مجتمعة، فتكون اللفظة

---

(١) مجموع الرسائل: ٣/٢٦٦.

(٢) ينظر: معترك الأقران: ١/٧٥.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ص٤٠، والبيان في إعجاز القرآن: ٧١.

(٤) ينظر: النقد الأدبي: ص٢٥-٢٦.

جامعة شاملة دالة على المعنى المراد أبلغ دلالة وأتمها، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾[1] فقال لنبيه: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾[2].

والجاحظ قد تناول في دراساته أيضاً للأسلوب القرآني في عظمة تصويره وروعة تعبيره، وكان ذلك في تحديده من المواقف، وقد بدا أكثر إدراكاً لما ترمى إليه الآيات المحكمات: حيث يعرض للصورة القرآنية المتواجدة في قوله تعالى في شجرة الزقّوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فيقول: «وليس أنَّ الناس رأوا شيطاناً قط على صورة، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين.. وقد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك: رجع بالإيحاش والتنضير وبالإضافة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم.. وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن»[3].

ولما كان الجاحظ يرى أنَّ إعجاز القرآن إنَّما يكمن في نظمه وتأليفه، فإنَّه لم يأل جُهداً في هذا السبيل كلما سنحت له الفرصة أو دعاه المقام للحديث عن عجيبة هذا النظم في القرآن... «وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور وهو منثور غير مقضى على مخارج الأشعار

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤، وراجع كتاب الحيوان: ١٨٨/٢، ط. هارون، وأثر القرآن في النقد الأدبي: ٨٣.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٦٤-٦٥.

(٣) الحيوان: ٣٩/٤، وينظر: مجاز القرآن: ٢١/١.

والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البراهين وتأليفه من أكبر الحجج»[1]. ولعل ما دعاه إلى الحديث عن النظم القرآني وبعده عن أن يتشابه في دقته وبديع تأليفه مع غيره من الكلام: هو ما أثير حول القرآن منذ نزوله، حيث وجده الناس منسجماً منساباً على نظم رتيب خاص به، وقد استرسلت آياته في وحدات مترابطة فحسبوه من وهمهم شعراً، كما رأى آخرون أن القرآن قد التزم أحياناً في بعض فواصله (روِّيا) معيناً، فظنوه على مثال القصيدة حيث تلتزم قافية بعينها. وظن فريق ثالث أنه يوجد تشابهاً بين هذا النظم وما كان يجري على ألسنة الكهان العرب من كلام مسجوع، فتوهموا أنه سجعاً[2].

ومع إنَّ القرآن قد حسم الأمر، وأنَّه من عند الله تعالى حيث قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

ونستطيع أن نلخص نظرية الإعجاز عند الجاحظ بما يلي:

١- القرآن بليغ من حيث ألفاظه المختارة المنتقاة، ومن حيث نظمه ورصفه، التي تقوم على إبداع في الإيجاز والمجاز والتشبيه.

٢- القرآن معجز من حيث الصِرفة، ولكنها تختلف كثيراً عن تلك التي ذكرها أستاذه النظّام من قبل، ولذا فهو يردُّ عليه في كتابه نظم القرآن،

---

(١) ينظر: النقد الأدبي: ٢٩/١.

(٢) ينظر: النقد الأدبي: ٢٩/١.

(٣) سورة الحاقة، الآيات: ٤١-٤٣.

فأساس نظرية الإعجاز، وعمود القول فيه بلاغته أولاً، أما القول بالصرفة فإنَّما تأتي في المرتبة الثانية، فهو دليل يضاف إلى دليل عجز العرب عن محاكاة القرآن في أسلوبه ونظمه[1].

٢- ابن قتيبة:

هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) في أواخر خلافة المأمون إمام من أئمة أهل السنّة، عرض في كتبه لكثير من أساليب القرآن، كما ردّ على الملاحدة والشعوبيين، على الرغم من الخلاف بين اتجاه المعتزلة -ويمثلهم الجاحظ- واتجاه أهل السنّة، حيث يرى الأولون في المجاز وسيلة من وسائل التعبير في القرآن... بينما يرى أهل السنّة أنه لا يصح التجوّز في كلام الله، وأنَّ المجاز من الضرورات التي لا يلجأ إليها القرآن، إذا صحَّ وجودها أو أضطر إليها البشر من الشعراء والبلغاء في كلامهم، وما ذلك -عندهم- إلا لقصر باعهم وضعف أدائهم، ولا يأتي الله به في كلامه وهو أعرف بموضع الكلم بمواقعه، ومن ثم فإنَّ الصور البيانية الواقعة في القرآن إنَّما هي على حقيقتها... فهناك يد الله ولكنهم لا يدرون ما كنهها، وهناك كرسي وهناك استواء... الخ[2].

وعلى الرغم من هذا الخلاف.. فإنَّ المقتصدين من أهل السنّة وعلى رأسهم ابن قتيبة، فقد أدركوا مع كثرة الدراسة والمقارنة أن المجاز واقع في

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ص٤٠، وينظر: الإعجاز البلاغي في كتب الجاحظ، بحث في مجلة الخطيب، العدد ٣١ لسنة ٢٠٠٤، بغداد.

(٢) ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي: ص١٠٥، وينظر: البيان القرآني عند الشنقيطي: ص ١٢٥.

القرآن وهو جائز، لأنَّه من مستلزمات التعبير، وللعرب المجازات في قولها. فلم يكن بغريب عليهم أن يكون المجاز في القرآن الكريم، وأن ابن قتيبة لم يتوسع في المجاز توسع أهل الاعتزال بل كان أكثر اعتدالاً وتحفظاً، وكان المجاز عنده محدداً بقواعد وأصول من الواجب مراعاتها، ولا يتوصل إليها إلا بدراسة ما جاء مشابهاً لها في كلام العرب وطرق القول عندهم، ومن ثم لا يصح حمله على غير ما يحتمل(١).

ومن كتب ابن قتيبة الخاصة بالقرآن الكريم (تأويل مشكل القرآن) و(غريب القرآن) حيث يتحدّث عن التشبيه والاستعارة والمجاز، كما يتحدث عن قضيتي التكرار والزيادة، ويظهر على كتبه الطابع اللغوي؛ وخاصةً وهو يرد على اللغويين الذين أنكروا المجاز، وعلى المعتزلة الذين أفرطوا في التأويل، وليس له بحث مستقل في إعجاز القرآن. ونجد في كتابه تأويل المشكل الذي يعد من أكثر الدراسات القرآنية اتصالاً بالبيان ولصوقاً بفن الأدب، ويعرض ابن قتيبة من خلال كتابه هذا أسلوب الدفاع القويم الذي أبلى فيه بلاءً حسناً، وذلك لمّا رأى من كثرة الشكوك التي تثار حول القرآن والمطاعن التي تسدد نحوه، فجاء كتابه مزيجاً من الدراسات الأدبية والنقدية والعقيدية... وكلها مما يدافع به عن القرآن. وبهذا نجد إنه يعرض في القصة الأولى من كتابه (تأويل المشكل) يبدأ بإثارة قضية الإعجاز حيث يبدأ تقديمه قائلاً: «الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ بل نزّله قيماً مفصلاً بيّناً.. وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكاذبين، وأبان بعجيب النظم عن حيل المتكلفين، وجعله متلواً لا يمل على طول التلاوة

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ص٤١، والنقد الأدبي: ١/٣٥.

ومسموعاً لا تمجّه الآذان، وغضّاً لا يخلق على كثرة الرد، وعجيباً لا تنقض عجائبه ومفيداً لا تنقطع فوائده»[1].

وهو بهذا يشير إلى إن الإعجاز -كما سبق عند الجاحظ- إنما هو بالنظم والتأليف.. والقرآن كله معجز، يقول: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[2] فيقول: وهل شيء أبلغ في العبرة والعظة من هذه الآية؟ وأنَّه أراد: أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فينظروا إلى آثار قوم أهلكهم الله بالعتو وأبادهم بالمعصية، فيروا من تلك الآثار بيوتاً خاوية قد سقطت عن عروشها، وبئراً كانت لشرب أهلها قد عطل رشاؤها وغار معينها، وقصراً بناه ملكه بالشيد[3] قد خلا من السكن، وتداعى بالخراب فيتعظوا بذلك ويخافوا من عقوبة الله وبأسه مثل الذي نزل بهم...

وبهذا حرص ابن قتيبة على تأكيد أمر الإعجاز في كتاب الله تعالى من ناحية نظمه وتأليفه، وليبين لكل من وقف على مثل هذه الآيات المحكمات أن فصحاء البيان لم يسعهم إلا أن يعرفوا للقرآن قدره، وكان عجزهم عنه شهادة له بالإعجاز[4]. ويتحدّث ابن قتيبة أيضاً عن اللغة العربية التي اختارها

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ص٣.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٣) كل ما يطلى به الحائط من جص وبلاط. ينظر: غريب القرآن: ص٢٢٥.

(٤) ينظر: النقد الأدبي: ١/٣٥-٣٦.

الله لتكون لغة القرآن.. فيقول: ولها الإعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها وحالية لنظامه وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهم إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب، ولو أن قائلاً قال: هذا قاتلٌ أخي (بالتنوين) وقال آخر: هذا قاتل أخي (بالإضافة) لدلَّ التنوين على أنه لم يقتله، ودلَّ حذف التنوين على أنه قد قتله.

ويتحدث ابن قتيبة أيضاً عن المجاز وأهميته في لغة العرب التي نزل القرآن ولم يكن مجرد قول في المجال، ولكنه جعله مدخلاً للكلام عن قضية من أهم القضايا المتعلقة بالقرآن الكريم حيث يقول: «وللعرب إنجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز»(1).

المطلب الثاني: الإعجاز عند المعتزلة

اتسم علماء المعتزلة إلى جانب قدراتهم في علم الكلام، بسعة الفصاحة والبيان، والإطلاع الواسع على فنون البلاغة، ومن أبرز من كتب في الإعجاز القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥هـ) الذي خصص الجزء السادس عشر من كتابه (المغني) للحديث عن إعجاز القرآن، يلحظ فيه المسالك الدقيقة التي سلكها لإبراز نظم القرآن المعجز. ثم يأتي الإمام الزمخشري والذي هو أيضاً من أبرز علماء المعتزلة حيث جعل كتابه تطبيقاً عملياً لآرائه في

(١) تأويل مشكل القرآن: ٦، وينظر: النقد الأدبي: ص٤٠.

الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

فلابد من أن نقف مع الزمخشري وتفسيره لمعرفة أسلوبه في الحديث عن إعجاز القرآن، باعتبار كتابه نموذجاً من كتب تفسير المعتزلة.

جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ):

هو محمود بن عمر الزمخشري لقب بـ(جار الله) لمجاورته الحرم المكي فترة من الزمن. وألّف كتابه في التفسير وهو مجاور لبيت الله الحرام، ويقول إنه أتم تأليفه في زمن يقدره بمدة خلافة أبي بكر ﷺ وهي سنتان وبضعة أشهر[(١)].

يُعدُّ الزمخشري من رؤوس المعتزلة، ومن أئمة النحو واللغة والأدب، وله في كل ذلك مؤلفات من أشهرها (أساس البلاغة) في اللغة، (المفصَّل) في النحو، وكتاب (الكشاف عن حقائق غوامض التتريل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).

لم يؤلف الزمخشري مؤلفاً خاصاً بالإعجاز، إلا إنه سلك في تفسيره مسلكاً دقيقاً أبرز فيه وجوه إعجاز القرآن من خلال الأساليب البلاغية التي نبّه عليها، وهو يفسر الآيات القرآنية. وعلى الرغم من إنَّه لم يقف عند كل كلمة، إلا إنَّه يطيل الوقوف عند الآيات التي تكشف له وجوهاً من روائع البيان وعجيب النظام في تقديم كلمة على كلمة أو حرف مكان حرف، ويتحدث عن كل ذلك بأسلوب الأدبي الضليع والبلاغي الذوّاقة التي يتذوّق جمال الكلام وأفانين القول.

يقول الزمخشري في مقدمة تفسيره: «... قرأناً عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية،

---

(١) ينظر: الأعلام: ١٤٧/٣.

معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طُولب بمعارضته من العرب العربان، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدَّ للإتيان بما يوازيه أو يُدانيه واحد من فصائحهم...»[1].

ويبين أنه لا ينبغي أن يتصدى لعلم التفسير إلا من كان على قدر كبير من معرفة علم المعاني والبيان[2].

ونجده يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[3] (يوم يرون) منصوب بأحد شيئين: إما مجادل عليه لا بشرى، أي: يوم يرون الملائكة يُمنعون البشرى أو يعدمونها ويومئذ للتكرير، وإما بإضمار أذكر: أي: أذكر يوم يروه الملائكة»، ثم قال: «لا بشرى يومئذٍ للمجرمين»، وقوله للمجرمين إما ظاهر في موضع ضمير، وإما لأنَّه عام فقد يتناولهم بعمومه (حجراً محجوراً) ذكره سيبويه في باب المصادر غير المنصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها، نحو: معاذ الله وقصدك الله، وعمرك الله، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة أو نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة، قال سيبويه: ويقول الرجل للرجل أتفعل كذا وكذا فيقول: حجراً وهي: حجره أو منعه، لأنَّ المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً، ومجيئه على فِعل أو فُعل في قراءة الحسن

---

(١) ينظر: مقدمة الكشاف: ١٠.

(٢) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن: ٥٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٢.

تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما كان قصدك وعمرك كله.

فإن قلت: فإذا ثبت أَنَّه من باب المصادر فما معنى وصفه بــ«محجوراً»، قلت: جاءت هذه الصفة لتأييد معنى الحجر، كما قالوا: ذيل ذائل والذيل الهوان، وموت مائت. والمعنى في الآية أَنَّهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه، وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم؛ لأَنَّهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون، وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموتور وشدة النازلة[1].

وقيل: هو من قول الملائكة، ومعناه حراماً محرّماً عليكم الغفران والجنة والبشرى، أي جعل الله ذلك حراماً عليكم[2].

❑ الصَّرْفة: لغةً:

معاني (الصِّرْفة) في اللغة تدور على صَرْف الشيء عن وجهه إلى جهة أخرى، فتصريف الرياح: جعلها جنوباً وشمالاً، والصيرفيّ: المحتال المتغلب في أموره، والصَّرْفِ: التقلب والحيلة، ومعناه -أيضاً- أن تصرف إنساناً عن وجه يريد إلى مَصْرِفٍ غير ذلك[3].

وفي الاصطلاح: هي «صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها، وغير مُعَجَّزَةٍ عنها إلا إن العائق[4] من حيث كان أمراً خارجاً عن

(١) الكشاف: ٨٧/٣، وينظر: الكتاب: سيبويه: ١٩٣/٢، وينظر: مباحث في إعجاز القرآن: ٥٥-٥٦.

(٢) ينظر: الكشاف: ٨٨/٣.

(٣) لسان العرب: مادة (ص ر ف): ٣٨١/٧.

(٤) أي: الصارف.

مجاري العادات صار كسائر المعجزات»[1]. وعليه فإن معنى الصَّرفة أنَّ الله تعالى لم يمكّن الناس من إنشاء مثل هذا القرآن، وأنَّ نظم القرآن غير معجز في ذاته، وإنَّما عجز القوم عن تأليف مثله؛ لأنَّ الله تعالى، صرف قُدرهم وأفكارهم عن هذا، فالإعجاز إذاً عند القائلين بـــ(الصَّرْفة) تأثير خارجي لا يرجع إلى ذات اللفظ القرآني[2].

❑ مصدر القول بالصرفة:

إذا أردنا أن نقف عند المصدر الذي نبعت منه هذه الفكرة في التراث العربي فإنَّه يمكن القول بأنَّ في هذه المسألة رأيين مختلفين:

الأول: يذهب إلى إنَّها فكرة مستقلة من التراث غير العربي، حيث يرى بعض الباحثين أنَّ هذه الفكرة مأخوذة عن غير العرب، ذلك أنَّ هذه الفكرة ذات أصول في كلام الهند، ومصدرها أقوال خاصة للبراهمة في كتابهم الفيدا[3]، الذي يشتمل على مجموعة من الأشعار، ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم، ويقول علماؤهم: إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها؛ لأنَّ (براهما) صرفهم عن أن يأتوا بمثلها[4] ولكن خاصتهم يقولون: إن في مقدورهم أن يأتوا بمثلها، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها.

---

(١) بيان إعجاز القرآن: ص٢٢، وينظر: الطراز: ٣٨٨/٣.

(٢) ينظر: معترك الأقران: ٩٣/١.

(٣) الفيدا: يطلق على كتب الهندوس المقدسة الأربعة، وقد يطلق على كل واحد منها على انفراد، وكُتبت هذه الأسفار باللغة السنسكريتية ويعود تاريخها إلى ما بين عام ٣٠٠٠-١٠٠٠ ق. م، ومعنى كلمة (فيدا) بالسنسكريتية «المعرفة». ينظر: موسوعة المورد: ٨٢/١٠.

(٤) ينظر: المباحث البلاغية: ص٢٧.

وعندما دخلت الأفكار الهندية في عهد أبي جعفر المنصور ومن والاه من حكام بني العباس، تلقف الذين يحبون كل واحد من الأفكار ويركنون إلى الإغراب في أقوالهم فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول ويطبّقون على القرآن وإن كان لا ينطبق[1] فقال قائلهم: إنَّ العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونظمه، بل كان، لأنَّ الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله[2].

الثاني: إنَّها فكرة عربية خالصة، ويرى أصحاب هذا الرأي أنَّها ظهرت بفعل أوهام خاطئة حول وجه إعجاز القرآن اعتقدها القائلون بالصرفة. ويشير الجرجاني إلى شيء من ذلك -دون أن يجزم به- فيقول: «الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة، أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهّم. إنَّ التحدي كان إلى أن يُعبّر عن أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أطلق لهم وخُيِّروا في المعاني كلها»[3] وهذا يعني أن القائلين بالصرفة قد تبادر إلى ظنهم أن التحدي كائن في لفظ القرآن ومعناه معاً، وبما إنَّ القرآن قد تضمّن من المعاني ما يخرج عن قدرة البشر، كأخبار الأولين والآخرين، والإخبار بالغيب وما حواه من التشريعات والتعاليم والقيم والمبادئ فلا يستطيع الإنسان بطبيعة تركيبه وعقله المحدود أن يعبّر عنها بمثل بيان القرآن وبلاغته، فهم مصروفون عن التعبير بمثل أسلوب القرآن لعدم تمكنهم منه مع معانيه[4].

---

(١) المصدر السابق: ص٢٧.

(٢) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن: ص٥٨-٥٩، والقول بالصرفة: ص١٥٧-١٥٨.

(٣) الرسالة الشافية: ص٦١١.

(٤) ينظر: القول بالصرفة: ص١٥٨.

ويبدو إنَّ الرأي الثاني هو الأقرب للصواب، نظراً لعدم ورود أي إشارة من العلماء القدامى الذين تحدّثوا عن هذه القضية تشير إلى كون الفكرة مستقاة من البراهمة أو من غيرهم.

❑ القائلون بالصرفة:

على الرغم من اتفاق الباحثين على المفهوم العام لفكرة الصرفة، إلا إنَّ ثَمَّة اختلافات بين القائلين بها حول تفصيلات معينة تتعلق بكيفية حدوث الصرفة، ويمكن القول هنا بأنَّ القول بالصرفة ظهر في التراث العربي على ثلاث صور ذكرها (العلوي) وهي:

١- أن يريدوا بالصرفة إنَّ الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة، مع أنَّ أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة مع التصريح بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية[١] وهذه الصورة لا تعني قدرة العرب على معارضة القرآن، فهم غير قادرين على ذلك البتّة، إلا أنَّ الله تعالى صرفهم عن محاولة شيء من ذلك لئلا يلتبس الأمر على العامة ممن لا يفرّق بين القرآن وكلام غيره.

٢- أن يُراد بالصرفة أن الله منعهم بالإلجاء على جهة القسْر عن المعارضة مع كونهم قادرين، وتسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة[٢].

٣- أن يريدوا بالصرفة أنَّ الله تعالى سلبهم العلوم التي لابد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ثم إنَّ سلب العلوم يمكن تتريله على وجهين،

---

(١) ينظر: الطراز: ٣/٣٩١.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٣/٣٩٢.

أحدهما أن يقال: إنَّ تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم وثانيهما: أن يقال: إنَّ تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها، مخافة أن تحصل المعارضة[1]»[2].

وقد قال جماعة بالصرفة، والمراد أن الله سبحانه صرف العرب والعجم عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع قدرتهم عليه.

ولعل الجاحظ، وهو من القائلين بهذا القول، يعرض وجهة نظره في الموضوع وهو يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[3].

يورد الجاحظ هنا اعتراضاً[4] فيقول: «إنَّ الله أعطى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فملكه على الإنس والجن والطير، وسخّر له الريح، فكيف لا يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها؟ ثم يقول: لله تدبير تعجز عن فهمه العقول. ويمثل الجاحظ أيضاً بموسى بن عمران عليه السلام، ومن كان معه في التيه لمدة أربعين عاماً في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون إلى مخرج منها، وما

(١) ينظر: الطراز: ٣/٣٩١.

(٢) ينظر: القول بالصرفة: ص١٦١.

(٣) سورة النمل، الآيات: ٢٠-٢٣.

(٤) الحيوان: ٤/٣٠.

كانت بلاد التيه إلا ملاعبهم، ولكن الله صرف أوهامهم. ويمثل بزكريا عليه السلام وكيف صرفه الله عن النطق ثلاثة أيام إلا رمزاً. ثم يقول: ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف من نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحدّاهم الرسول ﷺ بنظمه. ولذلك لم تجد أحداً طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلّفه ولكثُر فيه القيلُ والقال»[١] وشهد للجاحظ في كلامه هذا ابن حزم حيث يقول: «فما من بلغائهم أحدٌ يتكلف معارضة القرآن إلا سقط وصار مهزاة ومعبرة يُتماجَنُ به، منهم مسيلمة بن حبيب الحنفي لما رام ذلك، لم ينطق لسانه إلا بما يُضحك الثكالى والمفجوعين»[٢].

أما النظّام، وهو أستاذ الجاحظ فقد قال: إنَّ الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة[٣] وكان يقول: إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام. والعرب إنَّما لم يعارضوه، لأنَّ الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به[٤]»[٥].

ومن القائلين بالصرفة الشريف المرتضى؛ حيث إنّه فسّر الصرفة بقوله: إنَّ الله سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله. ومؤدى كلامه أنَّهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة فهم قادرون على النظم والعبارات، ولكنهم عاجزون عن

---

(١) الحيوان: ٤/٣١-٣٢.

(٢) إعجاز القرآن: ١٤٤.

(٣) ينظر: نهاية الإيجاز : ١٠٨، وينظر: البيان في إعجاز القرآن: ٩٣.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٩.

(٥) أسلوب القرآن: ص٣١٤ - ٤١٥.

الإتيان بمثل القرآن بسبب أنَّهم سُلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه[1].

وممن قال بالصرفة أيضاً: الفقيه الظاهري ابن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ): حيث قال في كتابه (الفصل) في سبب الإعجاز: لم يقل أحد إن كلام غير الله معجز، لكن لّما قاله الله تعالى، وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً، ومنع من مماثلته.. ثم قال: وهذا برهان كان لا يحتاج إلى غيره[2].

وابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ) يقول في كتابه (سر الفصاحة): وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته، بأنَّ سُلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك... ومتى رجع الإنسان إلى نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه[3].

وقالوا في حقيقة القول بالصرفة أنَّ العرب قد عرفوا منذ جاهليتهم بفصاحة الكلم، فلهم القصيد الطويل والنثر والرجز والسجع، ولهم المعلقات، وقد كانت محافلهم تقام لمعرفة ما استجد من أفانين القول، فكيف يعجزون عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن بمثل سطر واحد لا تتجاوز كلماته العشرة، فإن ثبت عجزهم فليس ذاك إلا أنَّ صارفاً صرفهم عن الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه.

ولهذا نجد مما تقدم من أقوال القائلين بالصرفة نتعرف على مذهبين لهم هما:

---

(١) ينظر: البيان في إعجاز القرآن: ٥٣.

(٢) الفصل في الملل: ١/١٤٧، وينظر: المعجزة الكبرى: ص٨٠.

(٣) سر الفصاحة: ص٨٩، وينظر: البيان في إعجاز القرآن: ٦١.

١- النظّام ومن تبعه: ذهبوا إلى إنَّ العرب صُرِفوا عن المعارضة أصلاً و لم يتوجّهوا إليها، ولو توجّهوا لقدروا على الإتيان بمثل القرآن.

٢- الشريف المرتضى وابن سنان الخفاجي ومن تابعهما: ذهبوا إلى إنَّ الله سلب من العرب علومهم التي يُحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله، ولو توجّهوا لما استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن.

ولهذا نجد إن كلا القولين مردود بأدلة نقلية وعقلية[١].

فالأدلة النقلية هي:

١- أجمعت الأمة قبل ظهور القول بالصرفة على إنَّ إعجاز القرآن ذاتي[٢] لاشتماله على ميزات جعلته يفضل كلام البشر. والقول بالصرفة يسلب عن القرآن إعجازه الذاتي، ويجعل المعجزة لهذا الصرف والمنع الذي حال بينهم وبين الإتيان بمثله.

٢- وصف الله سبحانه القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لا تصل إليها المعجزات الأخرى، ووجوه القرآن بينهم كافياً عن كل معجزة مادية أخرى، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ

---

(١) ينظر: البيان في إعجاز القرآن: ٦١-٦٢، ومباحث في إعجاز القرآن: ص٦٣-٦٤، وإعجاز القرآن: ٩٩.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ٦٦/١، والإتقان: ١١٨/٢ وغيرهما.

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٠-٥١.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾[1]: أي: لو كان من شأن كتاب أن يظهر له أثر في مثل هذه الأشياء لكان هذا القرآن أولى من كل كتاب.

إذن فالقول بالصرفة يسلب هذه الصفات الذاتية عن القرآن الكريم ويجعل الإعجاز في المنع الذي حال بينهم وبين الإتيان بمثله[2].

أما **الأدلة العقلية** فتتمثل بما يأتي:

١- إن قول النظّام ومن تبعه: إنَّ الله صرفهم بصرف الدواعي عن الاهتمام بالمعارضة يكذب الواقع التاريخي، كيف يقال إنَّهم لم يهتموا بأمر القرآن والتوجه لمعارضته، وهم الذين أوفدوا عُتبة بن ربيعة ليفاوض الرسول الكريم على ترك سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وله مقابل ذلك المال، والجاه والملك. وكيف يقال: إنَّ دواعيهم كانت مصروفة عن القرآن وهم الذين وجّهوا أشرافهم إلى عم النبي الكريم أبي طالب لكي يسلمهم محمدا يقتلوه ويعطوه بدله فتىً من قريش. فلهذا إنَّ ترك المعارضة بالحرف واللسان واللجوء إلى الضرب والطعن باللسان من قريش -ذؤابة العرب وأهل الحجا والنُّهى فيهم- لدليل على إحساسهم بالعجز أمام آيات الله تعالى. فكان العقل الراجح هو الذي يمنعهم من ارتكاب حماقات مثل حماقات مسيلمة عندما زعم أنَّه يأتي بمثل سور القرآن فأصبح أضحوكة الأجيال والأزمان. فتحدى القرآن الكريم العرب وأبطل عاداتهم وتقاليدهم الموروثة من الآباء والأجداد، وطلب منهم إن أرادوا البصيرة لأنفسهم أن يأتوا بمثل سورة من القرآن فقال لهم في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٩٧.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

٢- أما قول المرتضى ومن شايعه: إنَّ الله سلب من العرب العلوم التي يحتاجون في معارضة القرآن، فنقول: إنَّ الذين ادعوا أن إعجاز القرآن كان بسلب العلوم، يثبتون للعرب قدرة هم لم يدعوها لأنفسهم، بل جاء على لسان أهل البيان منهم ما ظهر الحق عليه، وإن كان القرآن غير معجز بشيء ذاتي فيه، وإنَّما لم يعارضه العرب لصرف دواعيهم عن المعارضة أو لسلب العلوم منهم، فهل أحس النظّام والمرتضى بما وصفوا العرب به من صرف وسلب؟ فلماذا لم يأتيا بمعارضته للقرآن.

إننا نقول: إن تحدّي القرآن وإثبات العجز للناس ليس مقتصراً على عهد النبوة فقط. بل هذا التحدّي قائم، وهذا العجز من البشر ثابت إلى قيام الساعة.

إنَّ استعظام العرب لفصاحة القرآن وبلاغته وتعجبهم من ذلك دليل على بطلان الصرفة، فلو كانوا مصروفين عن المعارضة بنوع الصرف لكان تعجبهم للصرف لا للبيان المعجز. ولو كان هنالك سلب علومهم لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدّي وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدّي وبين القرآن، ولما لم يكن كذلك بطل القول بالصرفة[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) ينظر: الفوائد المشوق: ص٢٥٢.